مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد7 / العـدد: 04 (2019)، ص 74 - 92

ماهية الأنا و آليات تشكّل صورته في شعر تميم البرغوثي

بوصلاح ياسمين[1]
[1]جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله- الجزائر.

الملخص:

أناقش في هذا المقال تطبيقيا " ماهية الأنا و آليات تشكل صورته في شعر تميم البرغوثي"، من خلال مقاربة تحليلية لشعرية تميم البرغوثي، و قد ركزت دقة على اشكالية جوهرية: تتصل بكيفية رسم ملامح صورة الأنا وأدوات تشكيل المعنى ، وفي سياق ذلك حاولت تحديد الإجابة على هذه الإشكالية خاصة من خلال خاصية التجسيد و التشخيص وكثرة تفعيل الشخصيات في شعر تميم البرغوثي ولذلك شكلت هذه الآلية أمرا هاما في تحديد ملامح الأنا العربي عند الشاعر وسمح لي ذلك الى الوصول الى نتائج نقدية مهمة تتعلق بآلية تشخيص المعنى عند الشاعر و معالم وجودها في بنياته الشعرية .وقد تبين لي ان للشاعر قوالبه التشخيصية المليئة بالعاطفة المتدفقة التي يشحنها بكل ما تختلج به جوارحه من الدلالات العميقة الكثيفة . وأعمق ما خلصت اليه ان تميم البرغوثي يلح على تجسيد صورة الأنا العربي الشامخ المتشبث برغبة البقاء، فهو يجسد هذه الفكرة على البقاء و الثبات في كثير من خطاباته الشعرية.

الكلمات المفتاحية: الخطاب / الشعري / الأنا / العربي؛ آليات / التشكّل/ التجسيد/ التشخيص.

Summary The article searches for "what is Ego and the mechanisms that shape his image in the poetry of Tamim Al-Barghouthi", through the analytical application of the contemporary Arab speech . The Palestinian poet Tamim Al-Barghouti, and we have stopped in this problem on a fundamental question: "What are the most prominent supplies of the problem in drawing the features of a picture . That The Arab ego in his poetic speech?" We have tried to answer this problem, especially through the characteristic of personalization, diagnosis and the proliferation of personalities In his poetry, this mechanism was important in defining the features of the Arab ego, and from the results reached in the last one:

The diagnosis mechanism is almost the most careful one in defining the features of the Arab ego. And his existence in the poetry of Tamim Al-Barghouthi And that's gives ideas, and the poet hates things to his inner mind in order to give them psychological cargos, and motivates them to produce his own meaning. The poet Tamim Al-Barghouthi, in his relation to the language, summarizes ideas and meanings that are included in diagnostic templates full of emotions, and the Diagnosis is a deep-seated trait .Finally, the poet Tamim Barghouti embodies the image of a towering Arab ego clinging to a desire for survival. He embodies this idea of survival .

Key words: Contemporary poetic discourse; Arab ego; formation mechanisms; incarnation; Diagnosis;

مقدمة:

شَغَل سبرُ أغوار النّفس الإنسانية، وتَقَصّي أعماقها الفلاسفةَ والعلماء والمفكِّرين، فنظروا لهذا الموضوع، وسالت أقلامهم ، وتناقلت الحضاراتُ في كتبها ومعاجمها وأساطيرِها وأغانيها وأشعارِها وقصصها، ما ينمّ عن معرفة كبيرة بأعماق النّفس الإنسانية، لكنّها ظلّت قاصرةً عن الإحاطة بكلّ جوانب المعرفة الدّقيقة بها، ذلك أنّ أشكالَ التَّعبير الكثيرةَ والمتنوّعة تشكّل مجالاتٍ واسعةً يصعبُ تفسيرُها جميعا، رغم أنّ الكتب السّماوية، وخاصة القرآن الكريم الذي لم يطَلْه تحريفٌ قد أعطت للفلاسفة والمفكّرين عبر الأزمنة المتتالية بعد الإسلام صورةً اتخذوها مبدأ تحليلٍ وتعليل فيما يقولون به.

وعند البحث في مفهوم الأنا، نجد أنّ أهمّ الكتاباتِ تلك التي قال بها المتصوّفة، فعندهم أنّها "الأنا المفكّرة، وأشاروا بها إلى الغيبة والشُّهود، وإذا قال الصّوفي: أنا بلا أنا، فإنّه يعني بذلك تخلّيه عن أفعاله"[1].

في هذا السياق فقد شُغلوا بالحديث عن الأنا "في حديثهم عن الفناء والوجود، وكان الأنا عند ابن سينا (428ه) بمعنى النّفس المفكّرة أيضا، وقد قال الحلاج (309ه):

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا"[2]

ولا يكاد الأمر يختلف كثيرا عند الفلاسفة المحدثين، فقد "عدّوه مبدأً كلّ تفكير، وعن طريقه انتهى ديكارت من الشّكّ إلى اليقين"[3]، ويكاد المحدثون يتّفقون

1- محمد التنوخي ،المعجم المفصّل في الأدب، ، دار الكتب العلمية، ط2 ، بيروت/لبنان، ، 1419ه/1999م، ج1، ص133.

2- مجدي وهبة، كامل المهندس ، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، ط2، بيروت/لبنان، ، 1984م، ص62.

3-المرجع نفسه، ص62.

4- محمد التنوخي ،المعجم المفصّل في الأدب، ، ص133

على أنّ الأنا هو "تعبير عن الذات الواعية، وشُعُورٌ بالوجود الذاتي المستمرّ، هي مركز ارتباط الإنسان بمجتمعه، وتحقيق رغباته ، وقد يّستَخدَم المصطلح ليشير إلى تلك السِّمة، أو ذاك المكوّن من مكوّنات الشخصية الذي يسيطر على السّلوك"[4].

وإذا تأمّلنا التعريفاتِ السابقةَ وجدناها تركّز على التفكير، والتعبير، والشعور بالوجود الذاتي المرتبط بالجماعة، والذي يضيف أو يَهَبُ للشَّخصية سماتِها الخاصّة، ويضبط سلوكها. وكونها ترتبط في تحديد مفهومها بعناصر الشّخصية، نجد أن علماء النّفس أولوا البحث في الأنا عناية كبيرة، في مقدّمة من شروحها وفسّرها فرويد(sigmund freud) في كتاباته وأبحاثه ودراساته، ووليم جيمسwilliam james (1842م-1910م)، وكارل غوستاف يونغ carl gustaf young، ورينه سبيتز renee spitzer (1887م-1974م)، ففي رأيه كما في رأي سيغموند فرويد(1856-1939) أنّ الأنا "لا توجد دفعة واحدة، ولكنّها تتكوّن من خلال النّمو الشّخصي، وخلال صراعات الحياة على نحو أكثر دقّة"[5].

وفيما نجد البعض ساواها في مفهومها مع الذات، كان البعض الآخر يميّزها عنها، معتبرين أنّ "الذات هي الشّخص في كُلّيته، والأنا مرجعٌ نفسيٌ تحدُّه وظائفه، وحدّوها بحدود الوعي والحكمة، فقد جعلها كارل غوستاف يونغ الجزءَ المركزيَّ من حقل الوعي وموضوعه"[6].

5- نوربير سيلامي ، تر: وجيه أسعد ، بمشاركة مائة وثلاثة وثلاثين اختصاصيا ،المعجم الموسوعي في علم النّفس، منشورات وزارة الثقافة، دط، دمشق/سوريا، 2001م، ج1، ص311 .

6-المرجع السابق، ص311.

وقد فصّل علماء النّفس الحديثَ عن الأنا، وقسّموها قسمين؛ الأنا الغائبة، والأنا العليا، وأشاروا إلى أنّها بنية تحتية للشخصية، ضابطة لعلاقات الفرد بالعالم الخارجي، وأيّدوا حاجتنا إلى الآخرين لصونها مستقلّة وسليمة، وبعيدة عن التفتّت، ذلك أنّها "محلّ توحّدات الفرد المتخيَّلة"[7]، وقابَلها فرويد في تنظيره لمفهومها بالهو أو الهذا، فهي عنده "ذلك العنصر من العقل الإنساني الذي يمثّل العمليات الواعيةَ المرتبِطةَ بالواقع، والمتصارعةَ مع الهذاا (العنصر الغريزي) la composante instinctive ، والأنا العليا (عنصر الأخلاقيات) volet éthique ، وقد استخدمه بادئ ذي بدء لحفظ الذات"[8].

والأنا الغائبةُ أو الهو هي التي تمثّل الرّغباتِ والعواطفَ، "وتتولى أمور العاطفة أو الشّهوة (ضمن طاقاتها الرّغبية)، وأمّا الأنا من لدنها فماهيةٌ تعمل على إدارة شؤون العقل أو الرّشد (ضمن قواها اللارغبية)، وأمّا الأنا العليا فماهيةٌ تعمَدُ إلى إقرار سلطة الرّقابة (ضمن مطالبها الاجتماعية)"[9].

لهذا نجد البعض يعرّف الأنا العليا بالضمير الكابح للأنا، فهو "المسؤول عن الشّعور بالذنب عند خرق نظام السّلوك الأخلاقي".

7-المرجع نفسه، ص313.

8- هتشنسون، تر: خليل راشد الجيوسي، مراجعة وتدقيق، رانية نادر ، معجم الأفكار والأعلام، ، دار الفرابي، ط1 ،بيروت/لبنان، ، 2007م، ص47.

9- غياث المرزوق ،الأنا، ، مجلة معابر الالكترونية، ديسمبر 2008م، الموقع الالكتروني:-Www.maaber.org/indexa/al dalil-min.htmghiath-el-marzouk

1- آليات تشكل صورة الأنا:

أ -آلية التجسيد والتشخيص:

إنّ الاستعانة بالتجسيد أو التّشخيص هي من أهم لوازم رسم ملامح صورة الأنا العربي في شعر تميم البرغوثي، فمن خلال هذه الآلية يمكن "إصباغُ الحياة الإنسانية على الأشياء، ولاسيما الطبيعة، ومنحها الحياة والنطق المشاركة الوجدانية، إذ يُبرز الشُّعراء انفعالاتِهم الإنسانيةَ على الجماد ويصوّرون الجامد كائنا يخاطبونَه، وقد يخاطبون الحيوان وينطقونه"[10].

إنّ هذه الآلية تسمح بدبيب الحياة في النّصّ، وتجعل على فكرةٍ أو موضوعٍ كائنا معبّرا عن نفسه، في صورةٍ على قدرِ غرابتها، تبدو أكثر إقناعا أو قابليةً للإقناع لِما يمنحُها التجسيدُ من قوّةٍ إيحائية وتأثيرية، ففي "التشخيص قد يُعتبر كائن أو شخص من نسج الخيال ممثلا لفكرة أو موضوع"[11].

وليس هذا بالغريب في ميدان الشعر، خاصة عند الرمزيين، فعنصر الدهشة الذي يخلّفه استعمالُ هذه التقنية هو أولى أولويات الشُّعراء، ووسيلتُهم في التجديد وبعثِ روحٍ في النّص، وهذا ما يراه البعض فارقا في عالم الكتابة خاصة الشِّعرية، وعالم الإبداع عموما، إذ يرى البعض أنّ "الشاعر وصانع الأسطورة يعيشان في عالم واحد، ولديهما موهبة واحدة، هي قوة التشخيص، فهما لا يستطيعان تمثّل شيء إلا إذا أعطياه حياة داخلية وشكلا إنسانيا"[12].

10- محمد التنوخي ،المعجم المفصّل في الأدب، ، ج1، ص .252.

11- إبراهيم فتحي ، معجم المصطلحات الأدبية، ، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، التعاضدية العمالية للطباعة والنشر، دط ، صفاقس/تونس، /1986م، ص85.

12- فن الشعر، ، دار صادر، ط3 ، بيروت/لبنان، 1962م، ص156.

ولهذا فالبراعة الحقّة هي حسن انتزاع الشّيء من عالمه، من عالمِ الجمود، وحمله إلى عالم الحركة، والفعل والقول، ومنح الجماد أو الحيوان القدرة على التعبير عن مكنونات النفس البشرية قد يجعل مما يقال على لسان الجماد أبلغ مما تتفنّن الخطابات في حمله، لهذا نجد نزار قباني يقول: "أنه لا شعر بدون اغتصاب، وأعني بالاغتصاب إخراج الشعر من مملكة العادة والإدمان إلى مملكة الدهشة، فعظمة الشاعر تقاس بمدى قدرته على إحداث الدهشة، التي لا تكون بالاستسلام للنموذج الشعري العام، الذي يكتسب مع الوقت صفة القانون السرمدي، ولكن تكون بالتمرد عليه ورفضه وتخطيه"[13].

وأشعار تميم سواء بالفصحى أو بالعامية، لا تكاد تكون خِلوا من التّشخيصات المنثورة هنا وهناك لأفكار أو مواضيع، وبين إعطاء الجمادات هبة النُّطق أو ترك الكلام لها، وبين استنطاقها وأحيانا تولي الكلام عنها، كما لو أنها قالت ثم خرست، تتوالى التشخيصات ومعها الشُّخوص التي أُفْرِغَت فيها الأفكارُ لترسمَ ملامح أنا عربيٍّ كل ما في حناياه ينطق بما في وجدانه وواقعه وآماله.

ففي قصيدة "مقام عراق" نلفي تلك الحركة الاستفزازية للجماد رغبة في استنطاقه، إذ يبدأ بالهلال فيقول:

يا هِلالاً لَنا

يارفيقَ الرِّفاق

هلْ سألْتَ وأنتَ تَعُدُّ خُطانا من الهجرةِ النَّبوية حتَّى احتلالِ العراقْ

هلْ رفِقتَ بنا

يا رفيقَ الرِّفاقْ؟[14]

13- نزار قباني ، قصتي مع الشعر، ، منشورات نزار قباني ، دط ، بيروت/لبنان، ص82.

14- تميم البرغوثي ، ديوان مقام عراق. شعر. ، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ط1، القاهرة/مصر، ، 2005م، ص15.

وهو أكثر المقاطع استفزازا للجماد حتى ينطق، وهنا يحكي على لسانه، فيقول:

فقالَ الهلالْ

أنا الاحْتمالْ

أنا الزَّعمُ أن الإضاءةَ في اللَّيْلِ مُمْكِنَةٌ دُونَ أنْ تَظْلِمَ النَّارُ زَيْتاً

ودُون افتِخارِ الدُّخانِ بلا وجهِ حقٍّ علَى العَالَمِينْ

أنا اللَّيل حينَ يُخَالف فطرته ويضيءْ

أنا الاحتمالُ الضئيلْ

أقول لكم، إنّ شمساً، وإن فارقَتْ، ما تزالُ هنا

في زَوَايَا السَّمَاءَ

ووجهي عليها الدَّلَيلْ[15]

ومع أنّ هذا التشخيصَ للهلالِ بعيدٌ عن الغموض، إذ يمكن فهمه بقليل تفكير، عكس ما "في الشعر الحديث من طفرة تتخذ خطّ ارتداد إلى الوراء، إلى التجسيد المثالي الغامض، المشحون بألغاز النفوس الفردية الغامضة وأسرارها"[16]، مع ذلك فإنّ اختيار الهلال يبقى الاختيار الأكثر حمولة للمعاني والإيحاءات، فالهلال للعربيّ منذ القدم، صَديقُ حِلٍّ وارتحال، ووجهُ الجميلة خلف النقاب[17]،

15- المصدر السابق، ص16.

16- رضوان الشهال ، الشعر والفنّ والجمال، ، دار الأحد، ط1، بيروت/لبنان، ، 1961م، ص32.

17 -إشارة إلى قول الشاعر: سَفرنَ بدورا وانتقبن أهلة ، بمعنى إذا كشفن وجوههن بدين كالبدر ، وان هنّ انتقبن كنّ كالأهلة ،ينظر ديوان عبد المحسن بن محمد بن غالب الصوري ، تح مكي سيّد جاسم ، إشعار للطبع والنشر ، ج1، ص16.

هو قارب الفضّة الذي تعلّقت أنظارهم به، وهو الرّقّ الذي رسِمت به اللام والألف[18].

ان رؤيةَ الشَّاعر في هذا المقام أعمقُ من أن تُنزِل الهلالَ لتَراهُ خلف نقاب، أو تخطّه في رقّ بين لام وألف، أو تجعلَ منه قاربَها الفضّي الذي ما رَكِبَتْه يوما، ولا جالت به أقطار السّماء، هي رؤيةٌ لا تتحدَّث عن الهلال، وإنّما تعطيه مطلق الحرية لأن يقولَ ما كان طوال كلّ تلك السنين والعقود والقرون، التي حلّ فيها وارتحل في أقطار السماوات، ليحكي عمن سار معهم وساروا معه، أو في ضوئه، عمّن أنار دروبَهم واستناروا بنوره، عمّن ظلموه ومن وقّروه.

لهذا كانت الصُّورة الشعرية "تجسيدا لرؤية الفنان الشاملة للعلاقة بينه وبين العالم"[19]، رؤيةٌ تتعدى تشبيه جمالٍ أو حُسْنٍ أرضي بآخر سماوي إلى إضفاءِ أبعاد أعمقَ وأدلّ في النفس الإنسانية، من ذلك: الثباتُ ومقاومة الظلمة التي ترمز لمقاومة القبح الموجود في هذا العالم، ومقاومة الظلم والاستبداد بكلّ أشكاله، والعَود، والوفاء، والانبعاث.

تواصِل الصُّورة التشخيصيةُ حمل المعاني، والدّفاعَ عن حقّ العودة والانبعاث، ورصد الأدلّة على صدقِ الوعد، وبثّ الأمل في النفوس، مُكَذّبة ادعاءات الراصدين.

أنا الاحتمالُ الخفيفُ الثقيلْ

أنا كلّما أضعفَ اللهُ ضَوئِيَ طالَبْتُكُمْ أَنْ تَرَوْنِي أَكْثَرَ

هاتوا مناظيرَكُم واستَعِدّوا

18-إشارة إلى قول الشاعر :كأنّه بعد تحنان الرياح به...رقٌّ تبيّن فيه اللام والألف.

19- غالي شكري ، شعرنا الحديث إلى أين؟، دار الشروق، ط1، القاهرة/مصر، ، 1993م، دار الآفاق، بيروت/لبنان، ط2، 1978م، ص .124.

أنا الأَمَلُ المُسْتغِلُّ الذّي دَائِماً يَطْلُبُ المُسْتَحِيلْ[20]

وبهذا تكون الأنا المعطاة للجمادِ جاعلة منه إنساني الوجود، هي أنا الشَّاعر الآملةُ بغدٍ أفضلَ، المتمسّكةُ بحقّ العودة، والانبعاث، وما ينطق به الهلال مُرافعة أمام كلّ المدّعين أن لا نور يسطع منه، وتكذيب لكل من يقول أنّ الأيام لا تدور، وأنّ الضعيف لا يُهاب له جانب.

يستثمر الشّاعر في هذا المقام الهلالَ كرمزٍ يجسِّد معانيَ ذات كثافةٍ إيحائيةٍ، منها الطُّلوع، والوجود المكذّبُ لكلّ الادعاءات بالزوال، وكأنّ كلَّ الأعذار المختَلَقَة لاختفائه لا تدلُّ على شيء ممّا اختُلِقت لأجله، وبالتالي يصعب تصديق الأدلَّة والبراهين حتَّى ولو كانت علميةً، لأنّ طلوع الهلال في النهاية يلقي بكلّ ما قيل أدراج الرِّياح، لتحلَّ محله حقيقة واحدة يصدِّقُها العارفون به، وهي عودته، ووجوده في زوايا السماء.

وها هو –الهلال- يسترسل بالقول:

يوقِنُ الرَّاصِدُون بِأَنْ لا صَباحَ سَيَطْلُع مِنّي

لأنّي ضَعِيفٌ نَحِيفٌ هَزِيلْ

ويأتونكم بالبراهين هذا هُوَ الْعِلْم

إنّ الأهِلَّة أبْخَلُ مِنْ أَنْ تَجُودَ علَيْكم بِنُورْ

وإن الأهلة محض صخور[21]

حتى الآن يلخّص الهلال معاني وأفكار عدّة، من عناد وثباتٍ وكفاح، وأمل وصدق وعد، وعودةٍ لسالف عهد، وإصرار وتضحية وشهادةٍ وشهود.

20- مقام عراق. شعر. تميم البرغوثي، ص16،17.

21-المصدر السابق، ص17.

فما الذي يمكن أن يحمله من معاني أكثر؟

هل يمكن للفظة هلال أن تحتمل المزيد من الدلالات؟

إنّ الإجابةَ رهْنٌ بِملَكة الشاعر الخالقة، وبقُدرته على التخييل، ومتى ما استسلمت الأنا الشاعرة للشّعور الدقيق بما حولها، من أصواتٍ وحركةٍ وجمود، استطاعت أن تُحاور ما استوعبَه كيانها، وتوقِظ في داخلها شعورا أوسع وأكثر إصغاء وانتباها لأدقّ تفاصيل الحياة، "فالشعور الدقيق هو الذي يتأثّر بكلّ مؤثّرٍ، ويهتزّ لكلّ هامسةٍ ولامسة، فيستبعد جدّ الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير وتوقظه تلك اليقظة، وهي هامدةٌ جامدة، صِفرٌ من العاطفة خِلوٌ من الإرادة"[22].

وبهذا يفتح التشخيص بابا لتَيَقُّظ الحواس، واستثمارها في استيعاب العالم والوجود، واختزال فكرته وتدبُّرها، ثمّ إعادة بعث الصورة النهائية المتبلورة لدى الأنا عن الوجود والأحاسيس، بصياغة لفظية بيانية معبّرة عن مكنونات النفس البشرية وتَصَوُّراتها، "فالشعراء يسرقون مشاعرنا ولغتنا وأحاسيسنا، ليصوغوها شعرا بيانيا، يسرقون به ما تبقى من أخيلتنا"[23].

فالشاعر بطريقة أو بأخرى يكسب الطبيعة إلى جانبه، ولا يتأتى له ذلك بالتعالي عليها أو مهاجمتِها، وإنّما بالتماهي معها والخضوع لسلطانِ التأمّل العميقِ في حركاتِها وسكناتها، التي تنعكس تلقائيا على شعره وقبل ذلك شعوره، الذي يرى في ما هو موجود في الطبيعة إنسانا قادرا على التجاوب معه ومحاورته، "وهذا ما يُعرب عن مدى رهافة إحساس الشاعر، وقدرته على التخييل، ودقّة إصغائه

22- عباس محمود العقاد ،ابن الرومي حياته وشعره، ، دار الكتاب العربي، ط6، بيروت/لبنان، ، 1967م، ص .35.

23- محمد عبد الله الغذامي ،الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشريحية، ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، الإسكندرية/مصر، ، 1998م، ص،290.

لمفردات الطبيعة وكائناتها من حوله، وتحاوره معها، وتجاوبها معه شعريا، كأنّما تشاركه أحاسيسه ووجدانه"[24].

لذلك فإنّ الهلال يواصل مرافعتَه أمام التاريخ والوجود:

وقالَ الهلال

أنا الاِحْتمالُ بِكُلِّ المعاني

أنا الاحتمالُ الذي في السُّؤالْ

أنا الاحتمال الذي في القواعدْ

أنا الاحتمالُ بمعنى الأملْ

أنا الاحتمال الذي في الجَمل

وأنا الاحتمال بمعنى الرحيل

إذا ارتَحلَ الركبُ قيل احتملْ

وقال الهلالْ

أنا ذو الشهادة

بالمعنيَيْن، شهيدٌ وشاهد

وكلّ احتمالٍ يكون شهيدا

وكُلّ شهيدٍ يكون احتمالا

فصبرا زماني

سَتَدري، إذا أَذِنَ اللهُ لي فيك

أيَّ عدُوٍّ كريمٍ تُعاند[25]

24- محمد جاهين بدوي ،النسق والاغتراب في شعر يحي السمادي، ، دار الينابيع، ط1، دمشق/سوريا، ، دت، ص.158.

25- مقام عراق، تميم البرغوثي، ص.19.

-باولوكويلو ، الخيميائي ، تر ، جواد صيداوي ، تد،روحي طعمة ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، ط40،بيروت،لبنان،2019،ص،12.

هي إذاً ، إجابةٌ تكفي للدّلالة على مدى استيعاب الشاعر تميم البرغوثي للُّغة، وحُسن توظيف معاني ألفاظها، بِمَلَكةٍ لغوية تبعثُ الحياةَ في معاجمِ اللُّغة الموضوعَة للإحاطة بكلماتِها وتنظيمها، ، لكنَّ المزاوجة بين عنصرٍ طبيعي كالهلال، ومعانٍ جمّة متناثرة في معاجم اللغة وقواميسها تُفضي إلى تصوّرٍ حرّية من نوع آخر، حرية تُمَثِّل إفراجاً عن معانٍ مرصوصة بتلك القواميس، كانت الغاية الأولى من رصّها حِفظَها وحمايتها من الضّياع، لكنّها تتحوَّل بمرور الوَقت إلى رهائنَ، حبيسة دفّتي كتاب، والشَّاعر الذي كان قبل قليل سارقا للُّغة، يُصبِح في الحقيقة مُنقذا لها، إذ ما نَفعُ أن يملكَ النَّاس معاني كثيرة في أذهانهم ويحفظوها عن ظهر قلب، دون أن تكون لهم تلك المِلكة الخالقة التي تأتت للشَّاعر، والتي تمنح الكلماتِ روحاً، وحياةً جديدة بكلّ استعمال وتوظيفٍ داخل نصٍّ شعري، ألَن تصبح السّرقة بهذا المعنى عملا بطوليا ؟

في النهاية فان ما يسرقه الشَّاعر يعود إلينا بأبهى حُلَّة، وقد لا يعجبنا ما فعله الشاعر بلغتنا التي سرَقها، ولا بأحاسيسنا، ولكنّ مجرّد رؤية ما كان موجودا عندنا يعود إلينا بصورةٍ مختلِفة عن تِلك التي كان عليها عندما كان محفوظا وربّما حبيسا لدينا، تَجعلُنا نفطِن إلى أنّنا فرّطنا فيه، وإلا ما كان لِيُسْرَق، وأنّنا أثناء حفظِه اطمأننا إلى أنّه لا يحتاج لشيءٍ سوى الحفظ، والواقع أنّه كان بحاجة لأن يحيا ويُستعمل، فكما تقول الحكمة: "السفينة آمنة على الشاطئ لكنها ليس من أجل ذلك صُنعت"*، وبهذه الحالة نصبح أمام اللغة وأمام الشعور نحن المذنبين لا الشاعر، وكُلّ هَجمةٍ قدناها يوما ضدّ الشاعر الذي أسميناه يوما سارقا، تصبح وثيقة إثباتٍ على بطولته واحتماله أذانا له وللغة.

لا تحتاج اللغة أن نهرّبَها في قواميس ومعاجم، أو متاحف ومراكز، تحتاج فقط أن نطلق سراحها، فهي قادرة على حماية نفسها، ولا أَأْمَنَ عليها من شعر شاعرٍ عالم بها.

وإنّه لأمرٌ مُخجلٌ أن يفطن البدوي الذي كان في الصحراء لهذا، ويُحرّرَ لُغَتَه شعرا تتناقله الصَّحراء، ثمّ يأتي بعده جيلٌ يرى في فِعله سذاجة وقِلّة احترازٍ، ويعيبُ عليه أنّه توارثَ لغته شَفاها، وكان الأجدر بهذا الجيل أن ينظر إلى فعله هو، الذي يسبّب في الحدّ من استعمالات اللُّغة، وأمات منها من الكلمات ما يكفي لفتح مقابر لغوية.

إنّ الشاعر تميم البرغوثي في علاقتِه باللُّغة يُلَخّص أفكارا ومعاني ضمّتها كتبٌ ومعاجمُ وقواميس، ويصبُّ في قوالب تشخيصية مليئة بالعاطفة، ما تطوله يداه وتحمله جوارحه من الدلالات العميقة الكثيفة، فالتشخيص صفة عميقةٌ موغلةٌ في كياننا، وهو "ذو قدرة على التكثيف والاقتصاد والإيجاز، وإليه يرجع الفضل في انتشار الدوافع الانفعالية وتبدّدها، وأهم ما ينبغي أن يُحرِزَه التجسيم رسوخ الإطار العاطفي، بحيث يتجاوز عتبات الحسي والمعنوي، ويلتقي بمقولةٍ لا هي حسيةٌ ولا هي معنويةٌ خالصة، وإنّما هي الدنيا السحرية التي تجمع الظاهر والباطن والحسّيَّ والمعنوي"[26].

لذا يحتمل لفظ الهلال معاني البقاء والزوال والاكتمال، والنور والظلمة، فيقول:

أنا بذْرَةٌ في حقول اللَّيالي
يبشّرها بالزوال اكتمالي
وإنْ أَكْتَمِلْ فاكتمالي زوالي

26- مصطفى ناصف ،الصورة الأدبية، ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، دط ، القاهرة/مصر، ، دت، ص136، 137.

وإن زلتُ عُدْتُ إلى مولِدي

بذرةً في حقولِ اللّيالي[27]

ودورَةُ الهلال بين الاكتمال والزوال ليست سوى انعكاس لدورة الحضارة، بين قيامها وأفول نجمها، وكُلُّ حضارةٍ تُبْذَرُ فكرة، ثمّ تزدهر وتتطوّر إلى أن تبلغ أوج ازدهارها، ومع ذلك يرى المستشرفون والمنظّرون للحضارات أنّ بلوغ القمَّة هو الإيذان ببدء مرحلةٍ جديدة نحو نقطة النهاية، التي تكون هي الأخرى محطّ الانطلاق لفكرةٍ جديدة وحضارة جديدة أخرى.

لهذا ولأسباب أخرى يرى تميم في حال الأمّة أمرا طبيعيا، ودورةُ الزّمان التي لا تنتهي ولا تسلم أمّة ولا حضارة من سلطانها، ففي النهاية كلُّ أمّةٍ تحمِلُ بَذرةَ بقائها أو فنائها مع قيامها أو في اندثارها، وهي دائما بين شرّين؛ شرّ الفناء الذي تخشاه وتهابه، وشرّ آخر هو شرّ البقاء الذي تسعى للحفاظ عليه، وفي ذلك السعي للبقاء لا بُدّ أن يبقى الصراع قائما مع ما يواجهها من عوامل الفناء.

ظلامٌ ونور، وحقٌّ وزور، وطفلٌ ومارِد

أنا اللّيل في النور، والنور في اللّيل

والكلُّ في الجزء، والجزء في الكلّ

أعني المعاني جميعا

ومعنايَ واحد[28]

27- مقام عراق، تميم البرغوثي، ص.20.

28- المصدر السابق، ص20.

إنّ معرفتنا بما سُرقَ منّا، وبالأحرى نحن عندما نتعرّف على ما سُرِقَ منّا، لا نتعرّف عليه إلا بقدر ما نتعرّف على أنفُسنا، وكلُّ معرفة بما صار عليه بعد سرقته تحملُ في ثناياها معرفةً بذواتنا بعد تلك السّرِقة.

والحقيقة أنّ عودته إلينا مؤقّتة، إذ طالَ الحالُ أو قصُر، سَتُعاوَدُ سرقته منّا يوما ما، أو مِمّن أورثناهموه، وما ينبغي أن نأسف عليه حقّا ليس السّرقة في حدّ ذاتها، وإنّما أن لا يسرقَه خبير بالكلمات، قادر على منحها الأفضل.

وهنا نخلص إلى القول أنّ دورة حياة كلمة، ودورة حياة اللّغة، ليست هي الأخرى سوى انعكاس لدورة حياة الطبيعة، يمثّل الهلال جزء منها، ويمكن اختزال دورة الحضارة واللّغة والأمّة في الهلال، فيكون هذا الجزء كُلًّا، كما كان من قبلُ كُلًّا واختزلناه في جزء، إنّه ببساطة، أمرٌ طبيعي كما الخوف أمر طبيعي، وهو ما عبّر عنه تميم في القصيدة التي عنونها بالعنوان نفسه "أمرٌ طبيعي"، فقال:

يا أُمّتي، يا ظبيةً في الغارِ تسألُني وتُلحف:
هل سأنجو؟
قلتُ: أنتِ سَألتِني من ألفِ عامٍ
إنّ في هذا جوابا عن سؤالك
يا أُمّتي، أدري بأنّ المرءَ قد يخشى المهالكْ
لكن أذكِّرُكُم فقط فتَذَكّروا
قد كان هذا كلّه من قبلُ واجتزنا به
لا شيء من هذا يخيف، ولا مُفاجأةٌ هنالك
يا أمّتي ارتبِكي قليلا، إنّه أمرٌ طبيعيّ
وقومي،

إنّه أمرٌ طبيعي كذلك[29]

ويلحُّ تميم على تجسيد صورة الأنا العربي الشامخ والمتشبث برغبة البقاء، وهو يجسّد هذه الفكرة عن البقاء والثبات في كثير من أشعاره، إذ نجده مرّة أخرى في رمز طبيعي آخر هو النخلة، فكما قدّم بين يدي الهلال ثناء وعتبا، ثمّ استفزّه ليحكي، فعل مع النخلة، لكنّه لم يتماد مع النخل تماديه مع الهلال، إذ هي العمّة، وعليه حفظ كرامتها في مخاطبته إياها، ويُعلِن ثِقَتَه فيما ستقول، وحسنَ حفظه سرّاً إن اؤتُمِن عليه، فيقول:

نخلَ العراقِ أنا أعمى ولَمْ أرَ ما
أصابَ قومي وإنّي لا أُصَدِّقهم
إن أخبروني فأخبِرْني بربّكَ يا
نخل العراق...
نخلَ العراق اسرد التاريخ مكتَمِلا
كما شَهِدْتَ عليه لا كما وردا
يا رافِعَ التّمر عن أيدي الرِّجال فما
يناله أحدٌ إلا إذا صعدا (....)
يا رايةَ الإنسِ في الصحراء تُعْلِمُ بعضَهم ببعضٍ كأمّ تجمعُ الولدا (...)
يا نخلُ يا عَلماً يُسقى المياه ويُعطى رِزْقَهُ بَلَحا
وكُلُّ أعلامِنا تُسْقى بأعمارنا، ثُمّ الثّمار ردى[30]

29- تميم البرغوثي ، ، ديوان في القدس ، دار الشروق ، القاهرة ، مصر ،ط2 ، 2015 ، ص ، 61.

30- مقام عراق، ص34، 35.

31- المصدر نفسه، ص.22.

فالنخلة أمّ هذه الأمّة التي تقف في مكانها داعية إليها أبناءها، كما الهلال أبٌ لها، يتحمّلُ عبء الحياة عنها، وعبء اللَّيل الطويل لينير دربها، فالهلال قال قبلا:

المَوْتُ مُحْتَمَلٌ ضَيْفًا بِهِ ثِقَلُ كذا قِيامِيَ بعْد اللّيلِ مُحتَمَــلُ

واللَّيلُ حِمْلٌ أنا مِنْ تَحتِه جَمَلُ يا قائمي اللّيلِ لا خَوفٌ ولا وَجلُ

أنا لَكُمْ وَلَدٌ إنْ شِئتُ أو سَلَفُ[31]

وهو (الهلال) مِنْ قَبلُ توجّه إلى الله بِتوجُّهِه إلى قِبْلَتِه، فقد وصفه تميم قائلا:

ويا سِرّ قومي الذي ما تَأَوَّلْ

ويا منْ أعمارنا في يديْه

ويا مَن يُشيرُ إلى قِبلةِ الله ما يتحوّلْ

يَحِنُّ إليها تَحِنُّ إليه

لِذا تُبصرون ذراعَيْه مُمتدّتَين كما دائماً للعناق[32]

من لم يشهدوه، وللشاعر أنا مؤمنة أنّ سرد التاريخ لم يكتملْ، وأنّ أجيال الأمّة إن اطّلعت على تاريخها فسترى أنّ بإمكانها فعل أمورٍ كثيرةٍ حتى تغيّر مجراه، ولِتُعيد دورة الزمان سرد حكايتها التي ظنتها يوما غير قابلة للحكي.

والنخلُ بهذا يشخّص كالهلال فكرة البقاء والاكتمال والاستمرارية والشهود والشهادة، وصدق الوعد، والثبات في وجه العدّو، يقول تميم:

يا نخلُ قُلْ واختصِرْ إنّ العِدى وصلوا

يا نخلُ يا باقيا أقوامُه رحلوا

يا نَخلُ هلا سألتَ اليومَ من قُتِلوا

32- مقام عراق، تميم البرغوثي، ص.15.

33- مقام عراق، ص، 37 ،38.

هلْ يَقتُلُ اليأسُ أم يقتُلُ الأمَلُ؟
نخلَ العراق اسرُدِ التَّاريخ مُكتمِلا
حتى نرى أنّه ما ليسَ يكتمِلُ
وأنّه لمْ يزَلْ فيه لنا عمَلُ
نَخلَ العراقِ جزاكَ الله صالحةً
أُسرُدْ لنا ما ترى لا ما الورى نقلوا
فلَيْسَ من غاب عنْ يومٍ كمَنْ شهِدا[33]

إنّ التشخيصات في شعر تميم كثيرة، وقد شكّلت آليةً مهمة في تحديد ملامح الأنا العربي، ومن التشخيصات التي أوردها بالعامية المصرية قصيدة "النملة"*، حيث تعطى الكلمةَ لتُعبّر عن نفسها تعبيرا يعكس في الحقيقة واقع المواطن العربي، وصراعاته اليومية في ظلّ ما يكتنف العالم من تنافس لإثبات الوجود، ومن القصائد أيضا قصيدة "أوضة"*، وهي بالعامية المصرية أيضا، حيث يصوّر حوارا خلاقا بين أناه والغرفة التي تعكس في النهاية حيرته الوجودية، وعالم المتناقضات الذي يحيا فيه، وهذا المزج للمتناقضات، كان شاهدا على أنا الشاعر الحائرة.

وخلاصة القول في هذا البحث أنّ آلية التشخيص تكاد تكون صاحبة الحظّ الأوفر من العناية في تحديد ملامح الأنا العربي، ومعالم وجوده في شعر تميم، فالكائن سواء كان جمادا أو حيا، يمنح الأفكار، ويشد الشاعر بذلك الأشياء إلى أناه الداخلية بغية إضفاء شحنات نفسية عليها، ويحفّزها على إنتاج معناه الخاص.

*تميم البرغوثي ، ديوان المنظر، أشعار بالعامية المصرية القاهرة/ مصر، دار الشّروق ،ط1، 1423هـ/ 2002م، ص. 15.